

مكتب البحوث الفنية ببيروكسل

للاستاذ رشاد محمد محبوب

نعانى مجتمعاتنا الحديثة ضعف تقدم العلوم الاجتماعية ؛ وقلة نضوج المشتغلين بالعلوم الاقتصادية والسياسية ، أولئك الذين يدعون قيادة الرأي العام . وصار اليوم من واجب التعليم العالى أن يعمل على إظهار العلوم الاجتماعية ، وتكوين جماعة من الفنين يتسابقون مع متطلبات الحياة العامة .

ولقد شعرت كليات الآداب والفلسفة في كل البلاد بالحاجة إلى إدخال منهج من المحاضرات يرمى إلى إيجاد تلك الطائفة من العلماء ، ويحوى هذا المنهج معارف ثلاثا :
(أولا) المعارف الوصفية للأحداث الاجتماعية ، وهذه تضم بين دفتها التاريخ العام والجغرافيا البشرية ، وعلم الأجناس البشرية .

(ثانيا) المعارف التحليلية التى تنتجها العلوم الاجتماعية الخاصة مثل العلوم الاقتصادية والسياسية والقانونية والدينية وعلم الإحصاء وعلم اللغة .

(ثالثا) العلوم التركيبية التى تبين الاتصال بين الأحداث الاجتماعية وأقسامها العدة واتصال الأحداث الاقتصادية بالسياسية والفقهية والأدبية ، واتصال القانونية بالسياسية والأدبية . ومن تلك المعارف نخرج بفكرة جامعة كاملة عن الأفراد والروابط الاجتماعية بعضها بعضا .

والمعارف الثلاث التى أسلفنا ذكرها تجد متماماتها في المحاضرات العلمية والفلسفية والنفسانية وعلوم الإحصاء وطرائق البحث .

ولا تكفى العلوم الاجتماعية التى تلقى بكليات الحقوق لتكوين فنيين ، وبناء عليه فقد أنشئت مدارس للعلوم السياسية والاقتصادية والاجتماعية مستقلة عن كليات الحقوق ، ويطلق عليها في جنيف : " كلية العلوم السياسية والاقتصادية والاجتماعية " .

ولا يقتصر سبيل البحث لإعداد هؤلاء العلماء على المنهج الخاص ، بل وعلى منهج عام لكل من العلماء الاجتماعيين — والفنيين — ولكل من هذين دروس خاصة تتفق مع حاجاته الخاصة . فالعلماء الاجتماعيون مثلاً يهتمهم معرفة الكثير من الفلسفة ، وعلم النفس ، والتاريخ والطرائق العلمية . وطائفة الفنيين — سواء كانوا اجتماعيين أو شرعيين أو اقتصاديين — فهؤلاء مطالبون بدرس المسائل القانونية والسياسية والإدارية ومسائل أخرى دراسة وافية .

ولقد أنشأت جامعة بروكسل ببلجيكا سنة ١٨٩٩ مدرسة للعلوم السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، ويرجع الفضل لوجود تلك المدرسة وعلو شأنها الى الميؤ أرنتس سولفى ويقترن اسم هذا الرجل بأربعة أمور : فقد أوجد مستخرجات كيميائية هامة من بينها كربونات الصودا وقد نظم صناعة عالمية نافعة ، ودور رجل كريم محب للغير - وقد قام بأعمال فى الاجتماعيات لمن هم تحت إشرافه ، ويعتبر الرجل كمحام للأدب والفن فى المجمع العلمى ببروكسل على الخصوص .

وقد رأى بثاقب فكره فضل العلوم الاجتماعية ، وكان من أول المؤمنين بما تأتى من خدمات ، وتجلب من منافع . ولقد أهاب سولفى بالجامعة أن تنشئ المدارس وتسهل طرائق البحث الاجتماعية وإدخال الإصلاحات السياسية والاقتصادية .

ولا يخفى أن مجالات العلوم الاجتماعية رحبة الجوانب ، متسعة النطاق ، وعلى الذين يريدون كشف ما فيها ، وإثارة باحاثها أن ينفردوا بناحية من نواحيها ، ويختصموا ببحث من أبحاثها .

والمعروف أن قضايا العلم تتطلب النظر من عدة نواح ، فالمسائل المالية ومساائل العملة مثلا ليست مسائل اقتصادية بحتة ، وعليه فالمسائل الاجتماعية يلزم لبحثها الرجوع إلى ما يتصل بها من مسائل كالمسائل الاقتصادية والسياسية وغيرها ، هذه المسائل لكى تبحث بحثا شافيا تحتاج إلى عدد وافر من الأفراد يتجادون النظر ويتبادلون البحث .

فن الضرورى إذن توثيق ما بين تلك العلوم وتسهيل العمل المشترك والتضامن فى الدرس والبحث ، وتنفيذا لهذا الغرض النبيل أسس سولفى سنة ١٩٠١ مكتبا للبحوث الفنية ببروكسل سمي مكتب "سولفى الاجتماعى" ببروكسل .

وله غرضان : أولهما ، إعداد المعدات اللازمة للبحث الوافى ، وثانيهما تنشيط التعاون المتين الدائم بين العلماء والفنيين لتحصيل الشؤون التى تهتم الصالح العام تمجيها دقيقا . ونرى من المفيد إلقاء نظرة على نظام ومجهودات مكتب البحوث الفنية ببروكسل الذى أحرز شهرة عالمية فائقة .

فالمكتب عبارة عن مجمع علمى شائق للعلوم الاجتماعية ، وهذا المجمع منذ نشأته يفتح صدره للباحثين والمستغلين بالمسائل الاجتماعية ، والذين يحتاجون لأمر من الأمور ، فهو يقدم لهم المعلومات التى تخص هؤلاء بسرعة وسهولة .

ولهذا الغرض أنشأ المكتب "معهدا إعداديا" يقوم كمكتب دولى لاثائق والمعلومات الخاصة بالأمور الاجتماعية . وهذا المكتب يقدم للمجمع الوثائق الوافرة التى يجمعها والحلول

التي أيدها العلماء والمعاهد العلمية الأخرى والتجارب التي أصابها العلماء في ضروب البحث المتباينة .

وهذا قائمة بأسماء المشتغلين ببحث " الاجتماعيات " و بأسماء المعاهد والجمعيات العلمية والمكتب السالف الذكر يبعث بأسئلة بعض العلماء إلى البعض ، و يمد أسماء التتبايف اللازمة للسائلين ويرسل بأسماء العلماء لهم ويعمل على تقوية الأواصر العلمية بين هؤلاء وهؤلاء ، وبهذا يحقق فكرة " التعاون الفكرى " .

أضف إلى ما تقدم أن الباحث يجد في مجلة المكتب صفحات علمية ثمينة ووثائق عامة وإشادة بالمكتب والرسائل والمقالات التي تهتم الباحثين في العلوم الاجتماعية .

ومن ذلك يرى أن نظام المكتب يسمح بمعالجة المسائل الاجتماعية بتمعق ووفرة . ويلاحظ أن هناك مساعدين يعدون السجلات اللازمة ويجرون الأبحاث التي لا يسمح الوقت للعلماء بحجها . ويلاحظ أيضا أن المساعدين الدائمين والمؤقتين للمكتب المختصين بالعلوم الاجتماعية . والمعتادين على البحث المشترك يجتهدون أن يعاونوا الباحثين الآخرين بتجاربيهم ومعارفهم .

وكثيرا ما لجأ علماء اختصاصيون إلى أنظمة العمل في ذلك المكتب وإلى مساعدة زملائهم فيه ، لكن الأشخاص غير الاختصاصيين كالكتاب وموظفي الإدارات الكبرى . ورجال الصناعة والمال والسياسة هم الذين يلجأون أكثر من غيرهم إلى وسائل البحث في المكتب .

وزيادة على ما ذكر فقد ألفت جماعات لتنجيص المسائل النظرية والعملية التي تعرض في كل اليوم وهي مؤلفة تأليفا يبشر بالبحث المشترك والمعلومات الوفيرة والنقل الصحيح .

وفي حالة ما إذا طرحت على بساط البحث إصلاحات اجتماعية ، لم يقتصر المكتب في نظرها على العلماء والفنيين ، بل إنه يدعو إلى جانبهم الساسة الذين يمثلون آراء عدة والموظفين العموميين المشتغلين بالبحث .

وكانت طرائق البحث في الاجتماعيات قبل الحرب الماضية سنة ١٩١٤ - ١٩١٨ ترمى إلى المسائل المادية والسياسية والاقتصادية وتشريع العمال والصحة الاجتماعية وتعديلات القانون الجنائي والتشريع للجماعات التجارية والاستعمارية . وقرب نهاية الحرب الماضية في غيبة الحكومة والبرلمان والإدارة وبعد الهدنة ، قام المكتب يبحث المسائل الاجتماعية حسب الدستور الوطني الجديد ، فالبحت في المسائل المالية أدى إلى تعديل الضرائب ،

والبحث في المسائل القانونية أدى إلى بث المساواة التي محاها الاحتلال الألماني ، وإلى قانون الإيجارات ، والبحث في مسائل الطرق الحديدية أدى إلى وحدتها ، والبحث في المسائل الصناعية أدى إلى إصلاح النظام الجمركي ، والبحث في النظام النيابي أدى إلى البحث في إصلاح مجلس الشيوخ .

ولقد استشير المكتب إبان الهدنة في المسائل العالمية الكبرى التي أنارتها الأزمات الاقتصادية والمالية ولما أنشئت لجنة التعويضات سنة ١٩٢٠ في باريس طلبت إلى المكتب أن يشرفها برأيه عن قوة ألمانيا في الدفع وغير ذلك من الأمور .

وقد اشترك المكتب أيضا في التأهب لعقد مؤتمر جنيف ، ومنذ سنة ١٩٢٣ والمكتب في صلة وثيقة بالإدارة الدولية للعمل .

وأخيرا فقد قام المكتب بقرار فياض عن رجوع بلجيكا إلى حالتها الأولى — سياسية واقتصادية وقانونية وإدارية — وهذا القرار ظهر في سنة ١٩٢٦

ويسعى مؤسس المكتب إلى تقديم العلماء والفنيين والاجتماعيين وانتشار روح المسالمة بين الطبقات والشعوب ، وقيام التعاون على قاعدة الوساطة واحترام الاتفاقات .

ولا يقوتنا أن نسجل هنا تلك المبادرة التي بذرت من العلماء والفنيين في معالجة المسائل أثناء الحرب الماضية وهي تأثر ضمائرهم في الشهوات العامة والانفعالات الشعبية .

ولكن إذا أغضينا عن هذا نلاحظ أن القائمين بالمكتب قد تألفت جماعتهم في جو وثام بين الطبقات والأمم .

وفضلا عن أنهم مختصون في الاقتصاديات والعلوم السياسية والقانونية والاحصاء وفي علم الخلق البشرية Ethnologie فإنهم كذلك يرومون إيجاد ثقافة اجتماعية عامة تمكنهم من فهم الاجتماعيات وفروعها حق الفهم دون تجاهل ناحية من نواحي البحث أو عامل من عوامله . ومما لا ريب فيه أن نفوذهم القوي المتين مما يجعل أبحاثهم تقابل بروح الطمأنينة والأمل ما

رشاد محمد محبوب